Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları

الدكتور قاسم حبيب جابر

الفلسفة والاعتزال في نهج البلاغة

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1407 هـ ـ 1987 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : ٨٠٢٤٢٨ ـ ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٢٩٦
بيروت ـ المصيطبة ـ بناية طاهر هاتف : ٣٠١٠٣٠ ـ ٣١١٣١٠
ص . ب : ٦٣١١ / ١١٣ تلكس : LE ٢٠٦٦٥ ـ ٢٠٦٨٠ لبنان

الاهداء

إلى الإنسان الفذ . . . .

إلى من عاش بين الفقراء وضد الفقر ، ومع المحرومين وضد الحرمان ومع الجماهير وضد الطغاة . . .

إلى القائد المقاتل الذي جمع بين اللين والقسوة ، وبين الرحمة والعنف ودخل ساحة الحرب قبل أن يبلغ الحلم . . .

إلى من بنى مجد الاسلام وأنار سبيله . . .

إلى العابد ، الزاهد ، الذي يقوم الليل ويصوم النهار . . .

إلى من اغتسل بالألم والعذاب ، وتعرض لعواصف التهم والشكوك وبقي مخلصاً في العطاء ، صامداً في وجه الباطل . . .

إلى من التزم بمبادىء الحق والعدل والخير والحب وحذر من مخالفتها .

إلى من قال في صباح اليوم الذي قتل فيه :

أشـــدد حيـازيمـك للمـــوت فـــإن المـــوت لاقـــيـكـــا
ولا تجـــــزع مـــن المـــــوت إذا حـــلّ بـــواديـــكـــا
كمـــا أضحـــكـك الدهـــر كـــذاك الـــدهـــر يبكيكـــا

إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) . . . شهيد الحق .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه الميامين .

أما بعد ، فإن « نهج البلاغة » اسم وضعه الشريف الرضي على كتاب جمع فيه ، ـ كما هو مذكور ـ المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، في جميع فنونه ومتشعبات غصونه . وقد اشتمل على عدد كبير من الخطب والمواعظ والعهود والرسائل والحكم والوصايا والآداب ، توزعت على 238 خطبة و79 بين كتاب ووصية وعهد ، و488 من الكلمات القصار ، واحتوت على عوالم وآفاق متعددة منها : عالم الزهد والتقوى ، عالم العرفان والعبادة ، عالم الحكمة والفلسفة ، عالم النصح والموعظة ، عالم الملاحم والمغيبات ، عالم السياسة والمسؤوليات الاجتماعية ، عالم الشجاعة والحماسة وغير ذلك .

ولقد انفرد هذا المصنف بسمات قلما نجد لها مثيلاً في أي كتاب إسلامي آخر سوى القرآن والسنة النبوية ، إذ لا نكاد نرى كتاباً تميز بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية الواحدة والأسلوب الواحد كما نراه في « نهج البلاغة » . وهو اليوم وبعد أربعة عشر قرناً من عهده ، يحافظ على نفس الحلاوة والطلاوة ، ونفس القدرة في تحريك العواطف والأحاسيس ، تلك التي كانت له في عهده ، رغم كل ما حدث من تحول وتغيير في الأفكار والأذواق والثقافات لأن كلماته لا تُحدّ بزمان أو مكان ، بل هي عالمية الوجهة ، انسانية الهدف ، من حيث أنها تتجه الى كل إنسان في كل زمان ومكان .

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه ، سار في الناس ذكره ، وتألق نجمه ، وأعجب به كل من وصل إليه ، وتدارسوه في كل مكان ، لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى والمعنى المشرف ، وما احتواه من جوامع الكلم في أسلوب متساوق الأغراض ، محكم السبك يجمع بين البلاغة والشمول ويعد في الذروة العليا من النثر العربي الرفيع .

لقد شغل الانسان بكل أبعاده ، مختلف خطب الامام علي (ع) وكلماته بهدف تحريره من ربقة الجهل وإنارة عقله بالعلوم والمعارف ، تمهيداً لايقاظه من سباته وبعثه على التأمل في

الكون وما يتخلله من أنظمة ونواميس وما يحكمه من إرادة خفية دقيقة التنظيم ، ليخلص من ذلك كله الى الإيمان بالله خالق الكون وواهب الحياة .

وليس بوسع هذا الإنسان المحدود حياة وقدرة ، أن يدرك هذه الحقيقة المطلقة ، ما لم يرتفع فوق الصغائر والشهوات ، ويتحرر من قيود المادة وأغلالها ويحترز من أغوائها وأهوائها ويفطم طبيعته عن ألبانها ، لذلك فقد ركزت خطب الامام علي (ع) على التقوى تلك التي تهب النفس القوة والنشاط ، وتصونها عن الانحراف والشطط ، وتدفع بها الى ملكوت الله حيث السعادة الأبدية . ولا يعني ذلك ، ترك المجتمع واعتزاله ، إذ لا رهبنة في الاسلام ، ولا يبدو من كلماته (ع) انها تدعو إلى مثل ذلك ، بل هي توحي الى الانسان بأن يتقي الله في دنياه ، ويعمل لدنياه كما لآخرته ، ويعيش حياته بكل بساطة وقناعة ، في ظل علاقة اجتماعية ورابطة حيوية تنبع من المسؤولية بالتعهدات الاجتماعية والمطالب الحياتية لكافة الناس ، هذه المشاركة في الحياة تفرض على الإنسان أن يعيش لغيره كما يعيش لنفسه في مستوى واحد من الحماسة والاهتمام .

هذه المعاني الانسانية الخالدة التي تضمنها نهج الامام علي (ع) جعلته موضع اهتمام الباحثين ورجال الفكر في كل عصر وجيل وسوف يبقى كذلك ما دامت العقول تكتشف فيه منطلقات جديدة لبناء هذا الانسان حتى يعود الى الصورة التي أراد لها الله أن تكون .

ومع هذه الأهمية التي حظي بها كتاب « النهج » فقد امتدت إليه سهام الشك منذ أن صدر عن جامعه وحتى يومنا هذا ، واختلفت فيه الآراء ، وفي كونه للامام علي (ع) أم للشريف الرضي ، وما زالت المواقف على حالها دون البت في ذلك ، رغم أن الموضوع قد استنفذ البحث .

ولقد واجهت هذه المشكلة وحاولت بما توفّر لي من الأدلّة ، والقناعات أن أثبت هوية هذا الكتاب وأتناوله بالبحث والتحليل لأظهر ما فيه من أفكار فلسفية واعتزالية ، فأكون بذلك قد تقدمت بمساهمة متواضعة مني ، في الكشف عن جزء هام من تراثنا الإسلامي الغني المعطاء .

من هذا المنطلق ، وضعت كتابي هذا وباشرته بلمحة عن حياة جامع النهج (الشريف الرضي) وشارحه (ابن أبي الحديد) ، وحاولت وبما توفر لي من أدلة « النهج » ونصوصه وكلمات الامام علي وغيره من أئمة العلم والفلسفة ، وبالاستناد إلى الشرح القيم الذي وضعه ابن أبي الحديد ، إن أبرز الى السطح ، وبصورة جلية وواضحة ، ما في هذا السفر من أفكار ومبادىء وخطرات فلسفية وأن أقتصر في ذلك على العموميات دون اللجوء إلى التفاصيل التي لا مجال لذكرها ، نظراً لتعدّد مواضيع هذا الكتاب وتشعب مسائله ،

وكان سبيلي الى ذلك موضوعات ثلاثة هي نفسها التي اعتمدها الفلاسفة منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا ألا وهي : الله والعالم والانسان .

1 ـ الله وصفاته :

إن « نهج البلاغة » يزخر بالالتفافات الماورائية والخطرات الفلسفية التي تتحدث عن الله وصفاته وتوحيده وتنزيهه ونفي التشبيه عنه . وهي وان جاءت متناثرة في تضاعيف هذا الكتاب ، لأنها قيلت على ما يبدو في مناسبات عدة ، إلا أن الذي يجمع بينها ، هي تلك الحقيقة الالهية المطلقة السارية منها . وقد انطلقت في ذلك من الأصول الخمسة التي وضعتها المعتزلة ، وكان هدفي من وراء ذلك أن أكشف عن أوجه المخالفة والمؤالفة بين كلمات الإمام علي (ع) ، وما قالت به المعتزلة في هذا الموضوع . ثم تطرقت الى العالم العلوي وما فيه من كائنات ، وانهيت هذا الباب بفصل عن النبوة والامامة .

2 ـ العالَم :

وهو أمر يتناول فكرة الخلق ، أو بمعنى آخر هل خلق الله الكون بما فيه على مثال يحتذى كما فعل أفلاطون وغيره أم استنبطه من العدم المطلق كما ترى الرسالات السماوية ؟وهل كان خلقه تعالى للعالم دفعة واحدة أو على دفعات متتالية ؟ وهل يدرك الله من خلقه الجزئيات دون الكليات أو العكس ، أم أن علمه يشمل الكليات والجزئيات معاً ؟

ثم تطرقت بعد ذلك الى مختلف النظريات الوضعية التي فسر بها أصحابها عملية الخلق مبدياً الرأي بها مشيراً إلى رأي الامام (ع) والمعتزلة في كل هذه الأمور .

3 ـ التربية :

باعتبارها العملية التي يتم بها إعداد الانسان ليكون جديراً بخلافة الله على أرضه ، والتربية وان لم تتخذ عند الامام علي نسقاً فلسفياً متكاملاً ، منظماً إلا أنها تتمحور حول فكرة واحدة تنجذب اليها ، وهي الانسان .

لذلك ، فقد تناولت في هذا الباب ، مختلف النواحي التربوية من سياسية واجتماعية وأخلاقية ودينية ووطنية وقضائية وغير ذلك ، وهي على تنوعها تتميز بعمق العاطفة الدينية وصدق الشعور والاحساس ، كما أنها من الأمور التي أقرها الاسلام ودعا اليها لبناء الانسان الفاضل القريب من الكمال . ثم أفردت في فصل خاص ، منهج المعتزلة التربوي وحاولت بما توفر لي من النصوص أن أضع فكرة عن كيفية إعدادهم التربوي للانسان الداخل ضمن مذهبهم وأبنت أوجه الشبه والاختلاف بينهم وبين ما قاله الامام (ع) في هذا الصدد .

وأخيراً تأتي الخاتمة وهي تعريف مختصر بالنتائج التي توصلت اليها .

ـ الدراسات السابقة :

كان لا بد لي ، وأنا أتناول هذا الكتاب، من أن أستعين ببعض الدراسات التي ظهرت عن « نهج البلاغة » والامام علي (ع) ، وكذلك عن المعتزلة . إلا أنني اعتمدت اعتماداً رئيسياً على الشرح الذي وضعه ابن أبي الحديد المعتزلي باعتبار شرحه للنهج من أفضل الشروح وأكثرها شمولية ، وبكونه أكثر إلماماً بأصول أهل الاعتزال . كما أنني استعنت ببعض شروح نهج البلاغة ورمزت اليها بالحروف منعاً للتكرار وطلباً للايجاز فكان (ح) لشرح ابن أبي الحديد . و(ب) لشرح ابن ميثم البحراني . و(ج) لشرح محمد جواد مغنية . و(م) لشرح محمد عبده .

هذا وبالاضافة الى العديد من المصادر والمراجع التاريخية .

وختاماً ، أرجو أن أكون قد وفقت الى ما رميت اليه من وراء هذا العمل والله ولي التوفيق .

الباب الأول